الأمن والمستقبل

العرب على نار السلام المستحيل

. نجاح واكيم* .

السيدات والسادة،

اسمحوا لي أن أتوجّه بالشكر إلى الإخوة في نادي الصحافة والإعلام الذي أتاحوا لي فرصةَ اللقاء بكم اليوم.

إنّها زيارتي الثالثة إلى هذه المنطقة من وطننا العربيّ. كانت الأولى في شهر تشرين الأول/أكتوبر من العام ١٩٨٩. وكان النوّاب اللبنانيُّون مجتمعين في مدينة الطائف بالمملكة العربيّة السعوديّة يبحثون عن مخرج للبنان من أزمته التي طالت، حرباً وقتالاً وخراباً، خمسَ عشرةَ سنة. جاءتني آنذاك دعوةٌ كريمةٌ من صحيفة **الخليج** في الشارقة، فلبّيتُها شاكراً. ومكثتُ أقلّ من ٢٤ ساعة، التقيتُ خلالها عدداً من المسؤولين والعاملين في الصحيفة، وكان بينهم عددٌ من اللبنانيّين، ثم عدتُ إلى الطائف لمتابعة أعمال المؤتمر.

وكانت الثانية إلى قطر قبل حوالى السنة، واستغرقتْ ٢٤ ساعة أيضاً، واقتصرتْ على ندوة في تلفزيون «الجزيرة» بمناسبة مرور عشرين سنة على توقيع اتفاقيات «كامپ ديڤيد.»

وهذه هي الثالثة. أرجو، بالرُّغم من قصرها، أن أتمكّن من التعرُّف أكثر، وعن كثب، إلى هموم المنطقة وشجونها.

وأحسب أنّ هذه المنطقة، التي تبدو هادئةً، يؤرّقها ـ خلف مظاهر البحبوحة ـ هاجسُ الأمن الذي لا تجده في انتمائها إلى أمّتها، بسبب افتقار هذه الأمّة إلى استراتيجيّةٍ ومفهومٍ واضحَيْن للأمن القوميّ العربيّ؛ فتهيم وسط العواصف تبحث عنه في كلّ مكان، وتشتريه بكلفة غالية وثمن باهظ.

وهذا هو ما يؤرّقنا نحن أيضاً، هناك في لبنان، وفي شتّى بقاع الوطن العربيّ.

عن الأمن، وعن المستقبل، أحاول أن أقول شيئاً، مستدِلاً عليهما بعلاماتٍ من الحاضر ومن ماضٍ قريب.

◆ ◆

كان الرئيس الأميركيّ الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه الهام ١٩٩٩.. **نصر بلا حرب**، الصادر في أواسط الثمانينيّات، قد تنبّأ بانهيار الاتّحاد السوفياتيّ وتفكُّكِ إمبراطوريّته وانفضاض منظومته الاشتراكية عنه. وتوقّع أن يحدث كلُّ هذا في نهاية القرن؛ ومن هنا عنوان الكتاب. غير أنّ تسارُعَ الأحداث في النصف الثاني من الثمانينيّات جعل نتائجَها تَسْبق توقُّعَه بعشر سنين. وعندما اضطرّ ميخائيل غورباتشيف إلى التخلّي عن السلطة في موسكو ليلة رأس السنة في ١٩٩١/١٢/٣١، كان النصرُ بلا حرب قد تحقّق تماماً.

لم يكن الرئيس نيكسون وحده هو الذي تنبّأ بهذه الأحداث. فعلى المقلب الآخر من العالم، وفي الفترة عينها، كان غورباتشيف ـ آخرُ الزُّعماء السوفيات الذي تولّى السلطةَ في بلاده ـ يفجِّر قنبلَته الشهيرة: **البيريسترويكا**. كان للانفجار وهجٌ ودويّ. وخلف الوهج والدويّ وما تولّد عنهما من دخان التحليلات الإيديولوجيّة، غابت عن أبصار الكثيرين وأسماعهم إشاراتٌ واضحة كانت هي أهمَّ ما تضمّنتْه تلك البيريسترويكا. وكانت تلك الإشارات تقول: إنّ نظاماً دولياً كان قد قام بعد الحرب العالميّة الثانية يتصدّع الآن في الأساس ويتداعى في القمّة؛ وإنّ عصراً من العلاقات الدولية الذي كانت قد حَكَمَتْه موازينُ الحرب الباردة وصراعاتها يوشك أن ينصرم. وهذا هو بالضبط أهمُّ ما أراد الرئيس الأميركيّ، المستقيل تحت وطأة فضيحة «ووترغيت» قبل عشر سنوات من ذلك التاريخ، أن يقوله في كتابه.

لم يَسْتطرد الرجلان أكثر، وقَصَرا رؤيتَهما في كتابيْهما على أحداث مرتقبة تقع في مركز النظام الدوليّ. لم يقولا مثلاً إنّ

---

* ـ نائب في البرلمان اللبنانيّ (١٩٧٢ ـ ٢٠٠٠)، وعضوٌ مؤسِّس في «حركة الشعب.» وهذه الكلمة هي نصّ محاضرة قدّمها في نادي الصحافة والإعلام في دُبي منذ مدة قصيرة.

بعد زيارة الأسد لفورباتشيف اتّخذ الأوّل قراره بتوسيع الحوار مع أميركا والسير بحذر على طريق «السلام»

حجارة النظام الدوليّ الذي يتداعى في القمّة سوف تَسْقط على الأطراف، وإنّ الشروخ التي في أُسُه سوف تمتدّ بالضرورة إلى أُسس الأنظمة الإقليميّة الرديفة. لكنْ سرعان ما تفجّرت الأحداثُ في دول أوروبا الشرقيّة، من بولونيا في أقصى الشمال إلى يوغوسلافيا على البحر الأبيض المتوسّط مروراً ببرلين وحائطها الشهير وبراغ وبوداپست وبوخارست وصوفيا. كان أولُ نظامٍ إقليميٍّ رديفٍ ينقلب من أساسه، وكانت المتغيّراتُ هناك تتجاوز الأنظمةَ وعقيدتَها وبنيتَها وولاءَها إلى الجغرافيا.. نعم إلى الجغرافيا.

لم تكن قد مضت أسابيعُ قليلةٌ على تولّي غورباتشيف قمةَ السلطة في الاتّحاد السوفياتيّ حتى كان الرئيس السوريّ حافظ الأسد يُسْرع إلى لقاء الزعيم الجديد في الكرملين ليستكشف آفاقَ المرحلة الجديدة في الدولة العظمى الحليفة، وانعكاساتِ هذه المرحلة على العلاقة بين قُطْبَي النظام الدوليّ آنذاك، ومن ثمّ على مجريات الصراع في الشرق الأوسط.

كان الرئيس السوريّ، على أثر توقيع اتفاقيّات كمپ ديڤيد بين مصر وإسرائيل، قد وضع نُصْبَ عينيْه هدفَ تحقيق التوازن الإستراتيجيّ بين سوريا وإسرائيل. ولتحقيق هذا الهدف كان يَرْسم سياساته في ضوء حقائق الصراع الدوليّ في مرحلة الحرب الباردة. وكان يَعْتمد أساساً على الدعم السوفياتيّ لسوريا، بموقعها المتميّز في خارطة الشرق الأوسط، ولاسيّما بعد الاختراق الكبير الذي حقّقته الولاياتُ المتحدة الأميركيّة في مصر. غير أنّ الغزوَ الإسرائيليّ للبنان في صيف العام ١٩٨٢، بالنتائج العسكريّة التي أسْفر عنها، وبالدّعم السياسيّ الأميركيّ لإسرائيل، كَشَفَ أنّ الأسد كان لا يزال بعيداً عن تحقيق هدفه. ولئن كان يشكو من بطء القيادة السوفياتيّة وترهُّلها وتردُّدها في المرحلة الأخيرة من عهد ليونيد بريجينف، فقد لمس في يوري أندروپوف الذي خَلَفَ هذا الأخيرَ حَزْماً وديناميةً في مواجهة التوسُّع الأميركيّ في المنطقة، عبُرتْ عنهما صفقاتُ السلاح المتطوّر التي قدّمها الاتّحادُ السوفياتيّ لسوريا آنذاك، والدعمُ السياسيُّ اللامحدود. غير أنّ اندروپوف لم يعمّر طويلاً، بل مات بعد بضعة أشهر فقط.

وبحسب رواية الكاتب الصحفيّ القدير محمد حسنين هيكل عن ذلك اللّقاء بين الأسد وغورباتشيف، سمع الرئيسُ السوريُّ من نظيره السوفياتيّ كلاماً جديداً تماماً عن رؤية موسكو إلى موضوع العلاقات الدوليّة والصراع بين القطبَيْن. وكانت هذه الرؤية الجديدة هي غير تلك التي حَكَمَت العلاقةَ بين الجبّارين طوال أربعين سنة، أيْ منذ انتهاء الحرب العالميّة الثانية. وعندما عاد الأسد إلى دمشق كان قد اتّخذ قراره بتوسيع قنوات الحوار مع الولايات المتحدة الأميركيّة والسيْرِ بحذرٍ على طريق «السلام» في الشرق الأوسط. ولكنْ أيّ سلام؟

◆ ◆

لم يكن مشروعُ «السلام» الذي وضعتْه وعملتْ من أجله وتعمل الولاياتُ المتحدة الأميركيّة وإسرائيل بجديد. ولا أقصد بهذا أنّ دولة عربيّة أخرى هي مصر كانت قد سبقتْ إلى قبوله والتوقيع عليه، وأنّ دولاً عربيّة أخرى كانت تسعى إليه وتَدْفع باتجاهه ـ ولو من خلف الكواليس ـ وتنتظر موافقةَ سوريا ومنظمةِ التحرير الفلسطينيّة لكي تندفع علناً في طريق هذا «السلام.» فقبل زيارة الرئيس المصريّ إلى القدس، في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٧، بربع قرن تقريباً أو يزيد، كان المشروعُ هذا معروضاً على العرب، أو مفروضاً على العرب. وكانت الولاياتُ المتحدة الأميركيّة، كما هي اليوم، صاحبةَ المشروع ومهندستَه ومتولّيةَ إعدادِ مسرح الشرق الأوسط لإخراجه.

إنّ عودة سريعة إلى شريط الاتصالات بين الولايات المتحدة الأميركيّة ومصر وبقيةِ دول المنطقة في الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٧ تضع أمامنا بوضوح صورةَ هذا «السلام»، ومضمونَه، ومَوْقِعَه في لوحة النظام الإقليميّ للشرق الأوسط الأميركيّ.

جمال عبد الناصر

وإذ ذكرتُ بالتحديد مصرَ فلسببٍ معروف، وهو أنّها بعد ثورة ٢٣ يوليو/تموز ١٩٥٢ كانت أوّلَ مَنْ تصدّى لمشروعات الأحلاف الغربيّة ـ الأميركيّة في المنطقة، بالرفض بدايةً، ثم بالمقاومة، وبعد ذلك بقيادتها لمشروعٍ إقليميّ بديلٍ عنوانُه الأساسيّ التحرُّرُ والوحدة.

كانت زيارة جون فوستر دالاس، وزير الخارجية الأميركيّة في إدارة دوايت آيزنهاور، هي أوّل زيارة له إلى المنطقة. كان ذلك في شهر مارس/آذار ١٩٥٣. ولا أدري إذا كان قد عَرف أثناء زيارته أو قَبْلها أنّ جمال عبد الناصر هو القائد الفعليّ للثورة وهو الرجل القويّ في النظام.

وإلى مائدة عشاء التقى الرجلان، السياسيُّ المحنّك والبكباشي الشاب. فَعَرَضَ دالاس رؤيته إلى الشرق الأوسط، ومَوْقع مصر في النظام الإقليميّ العتيد، ومَوْقع هذا النظام الإقليميّ في خارطة النظام الدوليّ وتناقضاته وصراعاته التي تؤجّجها مناخاتُ الحرب الباردة وتَحْكمها قوانينُ تلك الحرب وموازينُها.

قال دالاس إنّ النظام الإقليميّ للشرق الأوسط يجب أن يرتكز على عواصم إسلاميّة ثلاث: القاهرة، أكثر العواصم الإسلاميّة عراقةً؛ وأنقرة، أكثر العواصم الإسلاميّة تطوُّراً؛ وكراتشي، أكثر العواصم الإسلاميّة كثافةً وسكاناً.

وسأله عبد الناصر عن مغزى هذا النظام الذي تريده الولايات المتحدة.

لمواجهة الخطر الشيوعيّ، قال دالاس.

ولكنّ التناقض الرئيسيّ في عالمنا اليوم هو بين الوطنيّة وكلِّ ما عداها، قال عبد الناصر.

وطال الحديث بين رجلين كانا يقفان على طرفيْ نقيض.

ومع ذلك فإنّ «الرسائل» الأميركيّة إلى مصر، وعلى مدى ثلاث سنوات أو أربع، لم تنقطع. كانت بالإغراء حيناً وبالحصار حيناً وبالتهديد أحياناً. ولكنّها كانت كلُّها تَحْمل عنواناً رئيسياً واحداً: النظام الإقليميّ للشرق الأوسط في مواجهة الاتّحاد السوفياتيّ. وكانت تحمل عنواناً آخر متلازماً مع الأول: السلام بين الدول العربيّة وإسرائيل.

كان رفضُ مصر للمشروع الأميركيّ للشرق الأوسط يؤدّي بالضرورة إلى رفض هذا «السلام.» وكان إلحاحُ الولايات المتحدةُ على هذا السلام نابعاً من أنّها ترى ـ وهي على حق في ذلك ـ أنّه المدخلُ الحقيقيّ لتحقيق مشروع النظام الإقليميّ للشرق الأوسط تحت المظلّة الأميركيّة، وبالتبعية لها.

سلام، أو لا سلام... ليس هذا لبَّ المسألة. المسألة كانت، ولاتزال: التحرُّر أو التبعيّة... «الوطنيّة أو كل ما عداها» بحسب تعبير عبد الناصر.

وعندما قامت الثورةُ في العراق في ١٤ تموز ١٩٥٨ وخرجتْ بغداد من الحلف الذي حَمَلَ اسمَها، وذلك بعد إعلان الوحدة بين مصر وسوريا بخمسة أشهر، كتب دايفيد بن غوريون إلى دوايت آيزنهاور يقول ما معناه: إنّه لمن الخطإ الفادح أن تتصوّر الولاياتُ المتحدة أنّ بالإمكان قيامَ نظامٍ إقليميّ في المنطقة، مستقرٍ وموالٍ للغرب، بالاستناد إلى أيّة عاصمة عربيّة. بل إنّ هذا النظام يجب أن يستند إلى عواصم ثلاث: أنقرة وتل أبيب وأديس أبابا.

◆ ◆

لم يكن مشروعُ «السلام» الذي قبلتْه مصر في عهد الرئيس أنور السادات سوى ذلك المشروع عينِه الذي ظلّت ترفضه طوال عهد جمال عبد الناصر، وإلى يوم وفاته. ومن أجل توفير المناخات الملائمة لتحقيقه كان لا بدّ للولايات المتحدة من أن تَعْمل في دائرةٍ أوسع تمتدّ من إيران في الشرق إلى المغرب على المحيط الأطلسيّ، ومن تركيا في الشمال إلى السعوديّة وأثيوبيا في الجنوب.

وهنا سيتساءل المرء: أمصادفةٌ أن تندلع حربٌ أهليّةٌ في لبنان، الذي كان يأوي المقاومةَ الفلسطينيّة ويشكّلُ الخاصرةَ الرخوةَ لسوريا، في الفترة التي بدأتْ فيها الخطواتُ التمهيديّةُ الأولى على طريق السلام بين مصر وإسرائيل؟ أمصادفةٌ أن تكون إيقاعاتُ الحرب هذه مضبوطةً بدقةٍ

منذ انهيار الاتحاد السوفياتيّ زادت أعلام الأمم المتحدة أكثر من عشرين علماً لكيانات اثنيّة أو طائفيَّة

عجيبة على إيقاعات ذلك «السلام؟» أمصادفةٌ أن تندلع حربُ الخليج الأولى بين العراق وإيران على أثر مؤتمر القمّة الذي انعقد في بغداد في ربيع العام ١٩٧٩ من أجل توفير حدٍّ أدنى من التضامن العربيّ الذي يعوِّض خروجَ مصر وانفرادَها بتوقيع صلحٍ مع إسرائيل؟

بعد حرب الخليج الأولى هذه سينفرط عقدُ المتضامنين، ويتوزَّعون على طرفيْ تلك الحرب. وستُهْدر طاقاتٌ، وتتبدّل أولويّاتٌ، ويتبدّد شَمْل. لقد كُتِبَ الكثيرُ عن حرب لبنان وعن حرب الخليج الأولى. وعلى أحداث هذه وتلك كلها كانت بصماتُ الولايات المتحدة واضحةً لا لَبْسَ فيها. ولا يزال الكثيرُ الكثيرُ من خفايا تلك المرحلة طيَّ الكتمان، لم يُكْشف النقابُ عنه بعد. مثلاً، ما هي حقيقة ذلك المشروع الذي جرى همسٌ حوله في دوائر ضيّقة، والذي كان يرمي إلى تقسيم العراق في العام ١٩٨٦، مع أنّ الولايات المتحدة كانت تبدو ـ وهذا صحيح ـ أقربَ إلى العراق في حربه مع إيران؟

وتتداعى الأحداث في الخليج. وتتوقَّف الحربُ على الجبهة الإيرانيّة لتبدأ نُذُرُها في صفوف الأشقّاء الذين كانوا «يساندون» الرئيس صدام حسين في حربه «المقدّسة» ضدّ «المجوس الكفرة»... ثم، هي الحرب، تبدأ عربيّةً وتنتهي دوليةً وتُسْفر عن خراب كبير ونزفٍ هائل.

وصار الهمسُ الذي دار في كواليس ضيِّقة قبل أربع سنوات أو خمس «عاصفةَ صحراء» تخلِّف وراءها تقسيماً أو بدايةَ تقسيم على شكل مناطق للحظر الجويّ وخطوطٍ عرضٍ هي نفسها خطوطُ الانقسامات الإثنيّة والطائفيّة في العراق.

لقد قال الرئيس التركيّ الأسبق تورغوت أوزال في تبريره لقرار المشاركة في التحالف الدوليّ استعداداً للحرب ضدّ العراق: «ثمّة وليمة كبيرة في الشرق الأوسط. ومن الأفضل لتركيا أن تكون على لائحة المدعوِّين من أن تكون طبقاً يُقدَّم على المائدة.» وبعدها بثلاث سنوات كان وزيرُ الخارجيّة التركيّ حكمت تشيتين يَسْتقبل نظيرَه الإسرائيليّ شيمون بيريز. وفي موقع على نهر الفرات قريبٍ من الحدود السورية، كان الرجلان يَنْظران إلى الإنشاءات الضخمة التي تَحْبس مياهَ النهر خلف سدّ أتاتورك. قال تشيتين: «إنّ الحدود في هذه المنطقة من العالم لم تكن مرةً مقدّسة، وكذلك هي الكيانات. ثمّة خارطة جديدة للشرق الأوسط لا أستطيع تحديدَ خطوطها من الآن. ولكنّها قَطْعاً ليست الخطوطَ القائمةَ اليوم...». وفي الفترة هذه صدر كتاب شيمون بيريز: **الشرق الأوسط الجديد**؛ فَلْنُعِدْ قراءة رموزه وإشاراته بلغة تركيّة فصيحة.

كانت هذه الأحداث والإشارات تقع في الشرق الأوسط، من الخليج العربيّ إلى تركيا وسوريا وإسرائيل و... مدريد. كأنّما هي صدى لإيقاعات الأحداث الدوليّة التي كانت تتلاحق في الفترة عينها هناك، في أوروبا الشرقيّة، من بولونيا إلى يوغوسلافيا السابقة.

فمنذ انهيار الاتّحاد السوفياتيّ وانتهاءِ الحرب الباردة وتقوُّضِ النظام الدوليّ القديم، زادت أعلامُ الأمم المتحدة أكثرَ من عشرين عَلَماً، ونقصتْ علَماً واحداً هو عَلَمُ جمهورية ألمانيا الديموقراطيّة (الشرقيّة). وكانت كل الأعلام تخصّ كياناتٍ إثنيةً أو طائفيّةً انفكّتْ عن دُوَلها الأمّ... أو فُكَّتْ و«استقلّتْ» بعد صراعات دامية، وخرابٍ لا تستطيع النهوضَ بأعبائه إلى مدى أجيال وأجيال.

وبقدر ما كانت الولاياتُ المتحدة «مُسْلِمة» جداً في كوسوفو كانت «مسيحيّةً» جداً في تيمور الشرقيّة. وفي بلادنا الكثير من الإثنيّات والكثير من الطوائف والكثير من المذاهب والكثير من العصبيّات. فهل نعي المعنى الحقيقيّ لـ «السلام القائم على الأمن» الذي تريده إسرائيل؟ إنّ دروس كوسوفو وعِبَرَها، في هذا الصدد، لكثيرةٌ وواضحة!

بسقوط النظام الدوليّ القديم انهار الأساسُ الذي قامت عليه منظمةُ الأمم المتحدة، وانتهى دورُها كمرجعيّة للشرعيّة الدوليّة. ومعها تَسْقط شرعيةُ حدود وشرعيةُ كيانات.

لم يكن حكمت تشيتين ينطق عن الهوى!

◆ ◆

أكثر من ربع قرنٍ مضى على بدء عملية السلام، ولم يأتِ السلام، وهو بعدُ لا يَلُوح في أفق، وما تحقّق منه خلال هذه المدّة الطويلة يبدو بالغَ الهشاشة عند كلّ حدثٍ يقع هنا أو هناك. فالانتفاضة، والعنف الإسرائيليّ في مواجهتها، يزعزعان أسسَ اتفاقيّات أوسلو وكلّ ما نَتَجَ عنها. بل إنّ الانتفاضة الفلسطينيّة، بكلّ تداعياتها على غير جبهة، تهدّد عمليةَ السلام برمّتها، بما فيها تلك التي بدأتْ قبل ربع قرن على الجبهة المصريّة ـ الإسرائيليّة. ولقد سمعنا قبل أسابيع تهديداتٍ إسرائيليّةً بضرب مصر، وردّاً مصريّاً بردعٍ أيّ عدوان.

منذ ما قبل قيام الدولة كان طاقمٌ من السياسة «الحكماء» يقود إسرائيل. كانوا مجتمعين في «حزب العمل» وحوله، وهم الذين خطّطوا وأشْرفوا على ولادتها القيصريّة، ثم قادوا عملية تثبيتها بالسياسة وبالسلاح في هذا البحر المعادي والرافض لها. كانوا بحاجة إلى شرعية لدولتهم افتقدوه في التاريخ، فوجدوه في الأسطورة. وكانت الأسطورة تساند المشروعَ السياسيَّ وتتبعه. وهكذا كان حزبُ العمل هو الذي يقود ويحكم، وكان تجمُّع الليكود والأحزاب الدينيّة و«المتطرّفون» يساندون ويتبعون.

في العام ١٩٦٧، وفي وهج الانتصار العسكريّ الهائل الذي حقّقته إسرائيل في حرب حزيران/يونيو، انفلت السلاحُ ـ إلى مدى ـ من عقال السياسة وأخذ يقترب من جموح الأسطورة. وقَدِمَتْ إلى إسرائيل موجاتٌ جديدةٌ من المهاجرين، جاءوا من كل حدب وصوب. وكانت لهذا كلّه تأثيراتٌ عميقة على خارطة المجتمع وخارطة القوى السياسيّة في إسرائيل.

ومع تحوُّل «السلام» من شعار إلى مشروع أو وَهْمِ مشروعٍ كانت القيادة هناك تنتقل من «الحكماء» إلى الجنرالات، ومن العمل إلى الليكود، وأكاد أقول من السياسة إلى الأسطورة.

والسياسة مهما جمحتْ تضيع وتتبدّد عندما تَفْقد صلتَها بالواقع. والأسطورة مهما تواضعتْ تموت عندما تلامس الواقع. وبين حقائق السياسة وجموح الأسطورة تعيش إسرائيل، منذ ربع قرن، حالةَ تمزُّقٍ واضطراب لا يقيها شرورَها غيرُ هذا الضياع العربيّ المُفْجع: ضياعِ الرؤية، وضياعِ المشروع، وضياعِ الأداة أو تخلُّفِها وهزالِها.

إنّ إسرائيل تعيش حالةَ تمزُّق عصبيّ في داخلها: بين «شرعيّة» دولية تستند إلى حقائق السياسة، وشرعيّةِ الأسطورة التوراتيّة التي لا علاقة لها بحقائق العصر. ويتّخذ التمزُّقُ في داخلها شكلَ عصبيّاتٍ معقّدة متأجّجة ذاتِ طبيعةٍ إثنية وطائفيّة أو ما شابه ذلك. وينعكس كلُّ ذلك اضطراباً سياسيّاً تعبّر عنه تحوُّلاتُ الرأي العام بين الفينة والأخرى، والتحوُّلاتُ المتتالية من الليكود إلى العمل وبالعكس خلال فترات قصيرة.

نعم. إسرائيل غير قادرة على السلام. أما نحن؟

◆ ◆

لم يكد دويُّ المدافع يتوقّف على جبهات القتال في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣ حتى بدأت الشروخُ تَظْهر عميقةً في التضامن العربيّ الهشّ. ومع توالي الأزمات، هنا وهناك، كانت الانقساماتُ تزداد حدةً وتفجُّراً... إلى أن تفكّكَ الصفُّ العربيُّ كلُّه، وتحوّلت الجامعةُ العربيّة شظايا أنظمة وسلطات.

لم يعُد النظامُ الرسميّ العربيّ، وهو على هذا النحو من الضعف والهزال، قادراً على الاستجابة لأبسط موجبات الصراع مع إسرائيل ـ ولا أقول الحرب معها ـ ولا على مواجهة التحدّيات التي تَفْرضها المتغيّراتُ الهائلةُ التي تجتاح العالم. وهكذا صار يلهث، مشعْثاً ممزّقاً، وراء وَهْمِ «السلام» ـ أيّ سلام، وكيفما كان، وبأيّ ثمن ـ لا يعي حقائقَ عصره، ولا يَعْرف حقيقةَ عدوّه. صار بعضُه يسابق بعضَه سعياً وراء سراب. وصار الأمن ـ بمعناه المخابراتيّ الضيّق ـ هاجسَه الوحيد، فراح يمارسه بهوسِ المذعور

توطين الفلسطينيّين في لبنان أو جعل الأردن وطناً بديلاً قد يكونان من عناوين الفتنة الداخليّة في البلدين

ضدّ شعوبه، وتجاوَزَ في قمعه حريةَ المشاركة إلى حرية الرأي... بل إلى حرية النوايا.

وفي هذه الفترة تلاشت حركةُ التحرُّر العربيّة التي اتّخذتْ لنفسها أشكالَ أحزابٍ وتنظيماتٍ شعبيّة. بعضُها جرى تدجينُه بالخوف أو تفتيتُه بالقهر، وبعضُها بالرشوة، وبعضُها تبدّد من تلقاء ذاته. ولم يبقَ للشعب في ضعفِ أنظمته وتلاشي منظماته وانسدادِ آفاق المستقبل أمامه إلاّ أن يَستحضر من ماضيه مخزونَه الحضاريّ، يستعين به على جَوْر واقعه ليصونَ به هويّته على الأقلّ. وفي هذه البيئة نمت الحالةُ الإسلاميّة ـ ولا أقول الحركات الإسلاميّة ـ تعبيراً عن الممانعة والرفض أكثرَ مما هي تعبيرٌ عن مشروع. والحقّ أنّ هذه الحالة الإسلاميّة، بما صانتْه من هوية، قد حفظتْ لأمّتها الكثيرَ. وهي، بما عبّرتْ عنه من ممانعةٍ ورفضٍ، هيأت المناخَ الملائم لتنامي حالات المقاومة، التي كان أبرزَها حزبُ اللّه والمقاومةُ الإسلاميّة في لبنان.

ولا تفوتني في هذا المجال الإشارةُ إلى ما حققته طلائعُ شابةٌ في مصر. فهذه الطلائع، إذ عبّرتْ عن ضمير الشعب وقادت مقاومتَه ضدّ التطبيع، أرست الأساسَ الصلبَ لتحوُّلات كبيرة تَعِدُ بأن تعيد مصرَ إلى الموقع والدور اللذيْن كانا لها تحت زعامة جمال عبد الناصر.

وفي هذا المجال أيضاً لا بدّ من التوقُّف عند الانتفاضة، التي تتفجَّر في فلسطين منذ خمسة أشهر، ببعض الملاحظات:

أ ـ إنّ امتداد الانتفاضة، هذه المرّة، إلى المناطق المحتلّة منذ العام ١٩٤٨ يَطْرح بقوّةٍ مشكلةَ الثنائيّة القوميّة في دولة عنصريّة. ولأول مرّة تبدو إسرائيل أمام العالم تُشْبه إلى مدى بعيد دولةَ جنوب أفريقيا العنصريّة التي انهار نظامُها.

ب ـ لأوّل مرّة تُطرح بوضوح مسألةُ التعامل مع هذه المشكلة، فتُقْترح لها حلولٌ تبدو مستحيلةً على أرض الواقع الراهن: كمثلِ تهجير مليون عربيّ لقاء تفكيك عدد من المستوطنات.

ج ـ لأوّل مرّة أيضاً منذ ثلاثين عاماً يكون صدى الانتفاضة في المجتمعات العربيّة كافةً عميقاً وعلى قدرٍ كبير من الوضوح، بحيث اضطرّت الولاياتُ المتحدة إلى أخذ هذه الظاهرة في الاعتبار عندما طرحتْ أحداث الأرض المحتلّة في مجلس الأمن الدوليّ. ومما لا شكّ فيه أنّ هذا الصدى أثار قلقاً جدياً على استقرار النظام الرسميّ في غيرِ بلد عربيّ.

د ـ كذلك تَكْشف الانتفاضةُ مدى الهزال في النظام الرسميّ العربيّ من خلال أدائه في هذه الفترة. فقد كان واضحاً عجزُه عن التوفيق بين مقتضيات سلامته واستقراره وسطَ ما يتفجَّر في مجتمعاته، وبين مقتضيات أمنه تحت مظلّة الحماية الأميركيّة.

هـ ـ والأهمّ أنّ الانتفاضة زعزعتْ بقوّةٍ القواعدَ التي تقوم عليها عمليةُ «السلام» برمّتها، وهي تُنْذر بتفجيرها من الأساس.

◆ ◆

والآن، هذه هي الصورة: إسرائيل غيرُ قادرةٍ على السلام... أيّ سلام. والمجتمعُ العربيّ يَرْفض بقوّةٍ هذا «السلام» المعروضَ عليه أو المفروض عليه. والنظام الرسميّ العربيّ غيرُ قادر على الاستجابة لأبسط موجبات الصراع، ولم يعد قادراً أيضاً على حبس شعوبه بحجّة «الأمن» ضمن أسوار عجزه. إذاً؟

إنّ شيئاً كبيراً يجب أن يَحْدث.. لا بدّ أن يحدث، ليُخْرج المنطقةَ من هذا الاحتقان الذي يتفاقم.

الحرب الشاملة؟ لا أراها في أفق. والحروب البديلة على غرارِ ما حصل في الخليج؟ لا تبدو في مستقبلٍ منظور. ماذا إذاً؟

قبل الانتخابات الإسرائيليّة ببضعة أيام اتّصل بي صحافيٌّ صديق ليخبرني أنّ صحيفةً سويسريّةً بارزةً نشرتْ تحليلاً، وكان عنوانُه يتصدّر الصفحةَ الأولى من الصحيفة، وهو: «إسرائيل على أبواب حرب أهليّة.» فهل يصير عنوانُ التحليل عنواناً لحدث؟

وقبل حوالى ثلاثة أشهر التقيتُ في بيروت صديقاً أردنياً هو من أبرز الوجوه السياسيّة في بلاده. فبادرني بالسؤال عن تصريحاتٍ كنتُ قد أدليتُ بها في تلك الفترة، وحَذّرتُ فيها من اندفاع لبنان أو دَفْعِه إلى أتون الحرب الأهلية من جديد. واستفضتُ في شرح العوامل والمؤشّرات، وقلتُ: «إنّ أهداف الفتنة هذه المرّة ستكون مختلفةً عن أهداف الفتنة السابقة. إنّ تفتيت لبنان هذه المرّة إنّما يراد منه أن يتمدّد إلى المنطقة العربيّة المحيطة.» وهزّ الصديقُ الأردنيُّ رأسه وقال: «أخشى أن نسبقكم على هذا الطريق.»

«توطين الفلسطينيّين في لبنان:» ربما يكون هذا هو أحدَ عناوين الفتنة الداخليّة في لبنان. «دفعُ الفلسطينيّين إلى الأردن وجعلُه وطناً بديلاً:» ربما يكون هذا أحدَ عناوين الفتنة الداخليّة في الأردن... وكل ذلك بصرف النظر عن جدية هذا العنوان أو ذلك.

◆ ◆

ماذا بعد؟

في كل هذا الذي ذكرتُ تبقى حلقةٌ غائبة: إنّها حركة التحرُّر العربيّة.

لم تكن أمّتُنا أفضلَ حالاً مما هي عليه اليوم في الفترة ما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢. ولم تكن إسرائيل قد دخلتْ في المأزق الذي تعيشه اليوم. كان الواقع مؤلماً، وكانت الآفاقُ مسدودة، أو هكذا بَدَتْ. واستطاعت حركةُ التحرُّر العربيّة بقيادة جمال عبد الناصر أن تشقّ طريقاً، وأن تفتح آفاقاً، وأن تضع الأمةَ في الموقع الصحيح من الصراع.

هذا لا يعني أنّني أتصوّر الحركةَ تكرِّر نموذجَها السابقَ وتنتظر «البلاغَ رقمَ واحد» لكي تتحرّك. بل إنّني أتصوّر قيامَها على غير هذا النحو تماماً.

ولا أراها على صورتها السابقة: مجموعاتٍ خطابيّةً متناثرةً، تتلهّى بالشعار عن المشروع، وبالتبشير الأجوف عن الفعلِ المباشرِ والعملِ الخلّاق في صفوف المواطنين.

إنّ طلائعَ جديدةً شابةً، منفتحة ـ بغير انبهار ـ على العصر وتطوُّراته المتسارعة، يجب أن تَقْتحم ميدانَ العمل السياسيّ، فتعيدَ تشكيلَ أُطُرها وآلياتِ عملها بما يوفِّر لمجتمعاتها في كلّ بلدٍ القدرةَ على توظيف طاقاته وحشدِها في مشروعٍ وطنيّ هادف، وتصبّ جهودَها على التعاطي مع المشكلات الحقيقيّة لمجتمعاتها وأوطانها، وفي ابتكار الحلول العمليّة لهذه المشكلات.

إنّ المشكلات الحقيقيّة التي تعيشها البلدانُ العربيّة، وأعني التبعيةَ والتخلُّفَ والانقساماتِ التناحريةَ التي تولِّدها العصبيّاتُ وتغذّيها، هي في جوهرها متشابهةٌ ومرتبطةٌ بأساس واحد. وسوف تعيد التشكيلاتُ الوطنيّةُ، من خلال تعاطيها الجدّيّ والعقلانيّ مع هذه المشكلات، اكتشافَ قوميّتها، وتكتشف ـ من ثمّ ـ حاجتَها إلى إطارٍ عربيٍّ للعمل تتفاعل فيه وتتكامل من خلاله في «حركة عربيّة واحدة.»

◆ ◆

أيُّها الإخوة.

بالرُّغم من هذا الظلام الذي يلفّ أمّتَنا فإنّني أرى بوادرَ لهذه الحركة وبداياتٍ، وأرى في غير بلدٍ عربيّ ومضاتٍ تَعِدُ بالكثير.

ونحن في لبنان، ومن خلال «حركة الشعب،» بدأنا. ونُعِدُّ الآن لعقد مؤتمرٍ وطنيّ تتلاقى فيه قوى وتجمُّعاتٌ وطنيّة جديدة. كذلك بادرنا إلى إجراء اتصالات وعقد حوارات مع عدد من التشكيلات المشابهة في غير بلد عربيّ من أجل الإعداد لهذا الإطار القوميّ الذي أشرتُ إليه. والحديث عن هذا كله يستحق أكثرَ من لقاء وأكثرَ من محاضرة.

وفقكم اللّهُ، والسلامُ عليكم.

دبي